الحمدُ للَّه ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على جميعِ أنبياءِ اللَّه الْمُرسلِينَ، وجميعِ عبادِهِ الصَّالِحينَ.
- صاحبَ السَّماحَةِ الإمامَ الأكْبَر شيخَ الأزْهَرِ الدَّكتور/أحمد الطَّيِّب.
- أصحابَ الفخامةِ والسِّيادةِ.
- أصْحَابَ الفضيلةِ.
- السَّيِّدَاتُ والسَّادةُ.
السَّلامُ عليكم جميعًا ورحمةُ اللَّه وبركاتُه
في هذا المحورِ الذي نتحدثُ فيه عن القوميَّةِ والشّعبويَّةِ والدِّينِ نقولُ بأنَّ القوميَّةَ والشّعبويّةَ من الأفكارِ والنَّظرياتِ التي عاشتْ البشريةُ بعضَ صُورِهَا ومظاهرِهَا في القرونِ الماضيةِ، وقامتْ على أساسِهَا دولٌ وأحزابٌ، وهي تطويرٌ لفكرةِ القَبَلِيَّةِ والعشائريَّةِ التي كانتْ في المجتمعاتِ الجاهليَّةِ القديمةِ، والتي كانَ فيها رابطُ القبيلةِ والعشيرةِ هو الذي يجمعُ بين الأفرادِ، وهو ما عَبَّر عنهُ الشَّاعرُ الجاهليُّ بقولِهِ:
وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غُزَيَّةَ إِنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أَرْشُدِ
فكان الفردُ يرى الحقَّ فيما تراهُ قبيلتُهُ، ويرى الباطلَ فيما ترَاهُ، فهو يتعصَّبُ لأبناءِ قبيلتِهِ، وإن كانوا على خطأٍ وباطلٍ.
وفي القَرنِ المُنصرِمِ نشأتْ دُوَلٌ على فكرةِ القوميَّةِ، وتسبَّبتْ بحروبٍ مُدَمِّرةٍ بينهَا وبين قوميَّاتٍ وشُعوبٍ أخرى؛ لأنَّ القوميَّة تدعو إلى امتيازِ العصبِ عن غيرِهِ وتفوّقِهِ عليه، وهذا ممَّا يؤدِّي إلى التَّعصُّبِ لهُ، وضربِ الوَحدةِ الوطنيَّةِ للشَّعبِ، وصيغةِ التَّعايشِ السِّلميِّ مع الشُّعوبِ الأخرى؛ لأنَّها تعنِي الانغلاقَ وراءَ أَسْوارٍ عرقيَّةٍ تتنافى مع التَنوُّعِ والتَّعدُّديَّة، تماماً كالدولةِ التي تقومُ على أساسٍ دينيٍّ أو مذهبيٍّ، فإنَّ التَّعدُّدَ والتَّنوّعَ في الأعراقِ والأديانِ والمذاهبِ لا يكادُ يخلو منه شعبٌ من الشُّعوبِ، ولا مجتمعٌ من المجتمعاتِ البشريَّةِ، وقد تُحاولُ بعضُ القياداتِ من الأحزابِ الدِّينيَّةِ والسِّياسيَّةِ أنْ تطرحَ الأمورَ الشَّعبويَّةَ دينيًّا أو قوميًّا من أجلِ أن تحصلَ على مكاسبَ سياسيَّةٍ ومواقعَ في السُّلطة والْحُكمِ، وهي بذلك تزرعُ مشاعرَ الكراهيةِ والبغضاءِ داخلَ مجتمعاتِهَا ومع الشُّعوبِ الأخْرَى في العالَمِ.

* مَوقِفُ الدِّينِ من القَوميَّةِ والشَّعبويَّةِ:

إنَّ الدِّينَ ينطلقُ في نظرتِهِ إلى الإنسانِ مِن خلالِ إنسانيَّتِهِ التي يتساوَى فيها أفرادُهُ بعيدًا عن النَّظرِ إلى انتمائِهِم العِرقيِّ والدِّينيِّ، وهذا التَّعدُّدُ في الأفرادِ والجماعاتِ والتَّنوُّعُ في الأعراقِ والدِّياناتِ والثَّقافاتِ وإنْ كانَ يعنِي وجودَ المختلفينَ خارجاً وحقيقةً، ولكنَّهُ لا يعني بالضرورةِ أن يكونُوا على خلافٍ فيما بينَهُمْ، وإن اختلفتْ الآراءُ والأفكارُ والمُعْتَقَداتُ؛ لأنَّ معيارَ التَّفاضُلِ ليس في تلك الاختلافاتِ والانتماءاتِ، وليس في أصلِ الخلقِ الواحدِ المتساوِينَ فيهِ والذي يجمعُهُمْ، فالواحدُ منَّا يساويهِ غيرُهُ ويعادلُهُ في الإنسانيَّةِ الموجودةِ فينا بالتَّساوِي، كما جاءَ في القرآنِ الكريمِ مخاطباً النَّاسَ -كُلَّ النَّاسِ-

: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "[الحجرات:١٣] .
وفي الإنجيلِ: «أما قرأتُمْ أنَّ الذي خَلقَ من البدءِ خلقَهُمَا ذكرًا وأُنْثَى؟».
فهذه المساواةُ في أصلِ الْخَلْقِ تُبْطِلُ دعوى الامتيازِ في العُنصرِ، واللهُ يقولُ في القرآنِ الكريمِ: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ" [الإسراء: ٧٠]، "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" [الحجرات: ١٣].
وهذا يعني أنَّ معيارَ التَّفَاضُلِ عندَ التَّعدُّدِ والاختلافِ هو في العملِ الصَّالحِ، وهو ما تخاطبُنَا به التَّعاليمُ الدِّينيَّةُ بعد أصلِ المساواةِ في الإنسانيَّةِ كما جاءَ في الحديثِ: «أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لِغَيْرِكَ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ».
وكما وَرَدَ في الإنجيلِ: «كلُّ ما تريدونَ أنْ يعاملَكُمْ الناسُ بهِ، فعاملوهم أنتم بهِ أيضًا، هذهِ خلاصةُ تعليمِ الشريعةِ والأنبياءِ».
وفيهِ أيضًا: «وإنْ سلّمتُمْ على إخوتِكُمْ فقط فأيَّ فضلٍ تصنعونَ؟ أَلَيسَ العشّارونَ أيضاً يفعلونَ ذلكَ؟».
وفي الحديثِ الدِّينيِّ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ».
و: «لا فَضْلَ لَعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بالتَّقْوَى».
و: «إِذا كَانَ لا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ فَلْيَتَعَصَّبُوا إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَإِلَى مَحَاسِنِ الأُمُورِ وإِلَى مَحَامِدِ الأَفْعَالِ.
و: «الخَلقُ كُلُّهُم عِيَالُ اللَّهِ وَأَحْبُّهُم إِلَيْهِ أَنْفَعُهُم لِعِيَالِهِ».
ولا يمنعُ الدِّينُ مِن أن يُحِبَّ الرَّجلُ قومَهُ، فقد جاءَ في الحديثِ: «لَيْسَ مِن العَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجلُ قومَهُ، ولكِنَّ من العَصَبِيَّةِ أن يَرْى شِرَارَ قَوْمِهِ خَيْرًا مِنْ خِيَارِ قَوْمٍ آخَرِينَ».
فكُلُّ دَعوةٍ فيها انحيازٌ من صاحبِهَا إلى قومِهِ بالباطلِ هي دعوةٌ مرفوضةٌ دينيًّا، وقد وردَ في القرآنِ الكريمِ قولُ اللَّهِ تَعَالى: "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى" [المائدة: ٨].
فمثلُ هذهِ التَّعاليمِ السَّماويَّةِ ترفضُ التَّمييزَ بين النَّاسِ على أساسِ القوميَّةِ وغيرِهَا منْ الدَّعواتِ التي تُفَرِّقُ بينَهُم، وتجعلُهُم شِيعًا وأحزابًا، وتُعْتَبَرُ هذهِ التَّعاليمُ بمثابةِ العقدِ الاجتماعيِّ بين بنِي البشرِ عامَّةً، يُنظمُ العلاقةَ مع الآخَر؛ الفردِ مع الفردِ، والجماعةِ مع الجماعةِ، والشَّعبِ مع الشَّعبِ، والأمَّةِ مع غيرِها من الأممِ بعيدًا عن خصوصيَّاتِ الدِّينِ والمعتقدِ واللغةِ والثَّقافةِ واللونِ.
فالدِّينُ عندما يقولُ: «خَلَقْنَاكُمْ» و«جَعَلْنَاكُمْ»: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" هو يريدُ منَّا أنْ نتجاوزَ الحدودَ الضيِّقةَ المُصْطَنَعَةَ بينَ البَشَرِ إلى رِحَابِ الأُطرِ الإنسانيَّةِ التي تتَّسَعُ للجميعِ، والتي تجعلُ الغايةَ من التَّعدُّدِ في الأعراقِ والألوانِ والأشكالِ والأجناسِ هي التَّعايشَ مع بعضِهِم، والتَّكامُلَ فيما بينَهُم؛ فالتَّعارفُ يعنِي التَّواصُلَ والتَّعاونَ، ولا يعنِي الاحترابَ والتَّنازُعَ.
وأذكرُ قبلَ عشرينَ عاماً جاءتْ فتاةٌ فرنسيةٌ إلى لبنانَ اسمُها (ناتالي)، وكانتْ قد أحبتْ شابًّا أفغانيًّا في باريسَ وأحبَّها، وقد تجاوزا بلغةِ الحبِّ أسوارَ القوميَّةِ والاختلافاتِ الدّينيَّةِ،

وكانت تعاني في محيطِهَا من بعضِ المشاكلِ، وقد جاءت إلى لبنانَ والتقيتُ بها آنذَاكَ، وهذه الحادثةُ ولَّدتْ في نفسِي بعضَ الأبياتِ الشِّعريَّةِ آنذاك، وقُلتُها في قصيدةٍ:

(ناتالُ) يَا زَهْرَةَ الإفْرَنسِ كالذَّهَبِ
يَا نجمةَ الصُّبْحِ لاحتْ في سَمَا الْحُجُبِ
يا أختَ مريمَ يا بنتَ المسيحِ تُقًى
مَا بَينَنا للجَفا والبُعدِ من سَبَبِ
من نَسْلِ آدمَ جِنْنَا كُلُّنَا بَشرٌ
سودٌ وبيضٌ سواءٌ في عُرَى النَّسَبِ
لا عبدَ في النَّاسِ فالرَّحْمَنُ أكْرَمَنَا
واللهُ أنْشَأَنَا في الأَصْلِ من تُرُبِ
والخلقُ لا تثلمُ الألوانُ وحدتهُ
كالنَّفسِ واحدةً مَعْ كثرةِ اللقَبِ
والناسُ في الدِّين والدِّنيَا سَواسِيَةٌ
كَذَاكَ قَالَ نَبي العُرْبِ للعَربِ
عَاشَتْ جُدودٌ لنا والحبُّ يَجْمَعُهُم
والدِّينُ يلغي بذورَ الحقدِ والْحَرَبِ

وقلتُ في مناسبةٍ أخْرى:

معاً عِشْنَا بأرضِ الشَّرْقِ دهرًا
نَصَارَى إخوةً للمُسْلمينَا
ونحنُ عَلَى خُطَى الأجدادِ نَمْضِي
بإيمانٍ وَعَزْمٍ لَنْ يَلِينَا
ونَبْقَى الْأَوْفِيَاءَ لِمَا وَرِثْنَا
بِسِلْمٍ واعتدالٍ مُؤْمِنِينَا
نَصُونُ بذاك عَهْدَ العَيْشِ أهلاً
ولَا نَرْضَى بِغَيْرِ الْحُبِّ دِيْنا

*** الخاتمةُ:**

ولأجلِ ما ذكرنَاهُ من هذه النَّظرةِ الدِّينيَّةِ للإنسانِ، والعَابِرةِ للأعرَاقِ والقوميَّاتِ، والموحِّدةِ بين النَّاسِ، كُنَّا -وما زِلنَا- نتطلعُ إلى الإصلاحِ في عالمِ السِّياسةِ والدولةِ بالابتعادِ عن كُلِّ ما يُدْخِلُ شُعُوبُنَا في دائرةِ الفرزِ الدِّينيِّ والمذهبيِّ والقوميِّ، وأن تتمَّ إعادةُ النَّظرِ في هذه الأمورِ وغيرِهَا ممَّا يُشَكِّلُ مَصْنَعًا للتَّطرفِ والإرهابِ، ومزرعةً للكراهيَّةِ بين الشُّعوبِ وفي المجتمعاتِ.

وفي اعتقادِنَا أنَّ ما يساعدُ على الإصلاحِ هو إعادةُ النَّظرِ في عِدَّةِ أمورٍ:

* مِنْهَا: إصلاحُ مناهجِ التَّعليمِ والبرامجِ التَّربويَّةِ بالعملِ على توحيدِهَا في مختلفِ المراحلِ والقطاعاتِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، والعملِ على إلغاءِ التَّعليمِ الدِّينيِّ من المدارسِ التي يجبُ أن تنحصرَ مهمتُهَا في التَّربيةِ والتَّعليمِ والتَّنشئةِ الوطنيَّةِ. وأمَّا التَّعليمُ الدِّينيُّ فهو

مهمةُ الكنائسِ والمساجدِ ورجالِ السِّلكِ الدِّينيِّ المحتاجِ إلى الإعدادِ والتَّنظيمِ بما ينسجمُ مع رُوحِ العَصْرِ، والعيشِ المشتركِ الذي يستدعِي ثقافةَ الانفتاحِ والتَّسامُحِ.
* وَمِنْهَا: إعادةُ النَّظرِ في تشكيلِ الأحزابِ السِّياسيَّةِ، ومنعِ قيامِهَا على أسسٍ قوميَّةٍ ودينيَّةٍ وطائفيَّةٍ، بل يجبُ تشكيلُها، وقيامُهَا على أساسِ البرامجِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ التي تُهِمُّ كُلَّ المواطنينَ، ليصبحَ التمثيلُ للمواطنينَ في الدَّولةِ تمثيلاً سياسيًّا اجتماعيًّا يقومُ على أساسِ الكفاءةِ، وليس تمثيلاً قوميًّا وطائفيًّا ودينيًّا، وبذلك يتمُّ التأسيسُ لقيامِ دولةٍ مدنيَّةٍ في أوطانِنَا تكونُ دولةَ الإنسانِ التي تنطلقُ في دستورِها وقوانينِهَا من حاجاتِ الإنسانِ وحقوقِهِ المتساويةِ، وليست دولةً تقومُ على حقوقِ القومِ أو الطَّائفةِ أو الانتماءِ الدِّينيِّ؛ لأنَّ كُلَّ تلك العناوينِ تُؤَدِّي في الوطنِ الواحدِ إلى فَرْزِ الشَّعبِ الواحدِ وتقسيمِهِ إلى شُعُوبٍ وجماعاتٍ متصارعَةٍ، وهذا ما يتنافَى مع دعوةِ الدِّينِ للعدلِ والمساواةِ بين النَّاسِ.
ونحنُ إذ نشكرُ الأزهرَ الشَّريفَ، وشيخَهَ الإمامَ الأكبرَ الدُّكتور/أحمد الطَّيِّب على هذهِ الجهودِ التي تَبْنِي جُسُورَ التَّواصُلِ بينَ الإسلامِ والغَرْبِ، وتنشرُ فكرَ الوسطيَّةِ والاعتدالِ بين الأممِ والشُّعوبِ، ندعُو لإنشاءِ معهدٍ للحوارِ الدَّائمِ بين أتباعِ الدِّياناتِ والثَّقافاتِ ينضمُّ إلى معاهدِ الأزهرِ الشَّريفِ؛ ليَتَخَرَّجَ منه الطُّلابُ والعلماءُ سُفَرَاء ودعاةً لهذا التَّلاقِي والحوارِ في أوطانِهِم وشُعوبِهِم، وبذلك نُخْرِجُ الحوارَ عن إطارِ المناسباتِ المتفرقةِ إلى المؤسَّسةِ الدَّائمةِ التي نعيشُ فيها الحوارَ معاً بشكلٍ متواصلٍ.